خطاب الحرية وحقوق الإنسان في الإسلام (نصوص ووقائع)

عبد القادر الربّاعي

أستاذ، قسم اللغة العربية، كلية الآداب والعلوم، جامعة العلوم الإسلامية العالمية، الأردن

الملخص

كثرت التعاريف لمفهوم الحرية، إلى درجة القول: إن كلمة الحرية تحتمل من المعاني ما لا يمكن حصره، بحيث قد يكون من غير المحتمل قبول تعريف عام واحد يصدق على سائر مدلولات الحرية. ولعل الأقرب اختياراً هو القول بأن الحرية هي تلك الملكة التي تميز الإنسان – بصفته كائناً ناطقاً عاقلاً – يصدر في اختيار آرائه وأفكاره وأفعاله عن إرادته هو، لا عن إرادة غيره ؛ وذلك يعني أنه لم يكن عبداً لأحد ولن يكون.

أما حقوق الإنسان فقد أعلن عنها عام 1789م في أعقاب قيام الثورة الفرنسية مصدرةً بعبارة تقول: «يولد الناس أحراراً ومتساوي الحقوق». لكن الإسلام كان قد سبق هذا الإعلان حين رسخ احترامه لحرية الإنسان عملياً على لسان عمر بن الخطاب في قوله لعمرو بن العاص إثر تعدي ابنه على مصري ضعيف : « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً». كما أن الإسلام ساوى بين العبد والسيد في أحداث خاصة، وأحوال عامة معروفة، منها قول عمر في صحيفة القضاء الموجهة إلى أبي موسى الأشعري : « آس (ساوي) بين الناس في وجهك وعدلك ومجلسك حتى لا يطمع شريف في حيفك، ولا ييأس ضعيف من عدلك».

ومن الغايات المستهدفة في المبادئ الإسلامية تجفيف منابع العبودية بالترغيب في انتزاع حرية العبيد والأرقاء من مالكيهم ، ففي القرآن تشريعات تدفع باتجاه ذلك ، مثل قوله تعالى ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ ﴾ (البلد 10–13)، بل لقد ذهب النبي إلى حد تشريع إلغاء كلمة عبد أو أمة، فقال عليه السلام: « لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي». وفي هذا احترام لإنسانية الإنسان وتقدير عمله مهما كانت طبيعة هذا العمل المتاح.

والحرية في الإسلام ليست واجباً فحسب، لكنها ضرورة من ضرورات الوجود الإنساني؛ فمعها يحيا الإنسان، ومن أجلها يستشهد. وهي فيه قرينة للكرامة الإنسانية التي منحها المولى عز وجل للإنسان حيث قال: ﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ (الإسراء 70). ولما كان الإسلام نظام حياة لمجتمع متآلف فقد نظر إلى الحريات في إطار الحق الذاتي، والالتزام الاجتماعي ، والواجب العام؛ فمن حق الفرد أن يتمتع بحريته الشخصية في إطار حقه بالأمن والأمان، والتنقل ، والتعليم، والملكية، والفكر، والمعتقد، لكن من حق المجتمع والدولة عليه أن يلتزم بالأخلاق الإسلامية، والمنظومة الاجتماعية، وأن يحترم حرية غيره فيما يتمتع هو به من حريات وحقوق. كما عليه أن يؤدي التزاماته تجاه الدولة الإسلامية التي منحته حريته في كل وسائل عيشه ، وحمت حقوقه من أذى الآخرين مهما

كانت صفتهم ومواقعهم. إنه بهذا الالتزام والانضباط يغدو إنساناً صالحاً في أمة صالحة وصفها رب العزة بقوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾. (آل عمران 104) . كما يصبح من ذوي الشخصية المستقلة التي تأبى أن تكون إمعة تنقاد إلى ما يتنافى والفضيلة ، وإنما تختارأن تتجنب السوء في كل آن، وأن تسلك طريق الإحسان مع كل حال ، وهي التي أرادها الرسول أن تكون أنموذج الحق الجريء للشخصية الإسلامية الحرة قال عليه الصلاة والسلام: « لا يكن أحدكم أمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت، وإن أساء الناس أسأت، ولكن وطنوا أنفسكم: إن أحسن الناس أن تحسنوا وإن أساء الناس أن تتجنبوا إساءتهم».

هذا هو الإسلام الذي كرم الإنسان ومنحه الحرية التي يستحق في إطار دولة الحق والعدل والأمن والأمان. كما هيأ للمسلم كل السبل الكفيلة باعتزازه بذاته في ظل احترامه للآخرين.

ولعل ما يتوج الحريات في الإسلام حكمته في إطلاق حرية المعتقد. فالإسلام الذي اعتمد على العقل في تدبر شؤون الحياة والكون حين قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت 53)، ما كان يضره أن يضم المجتمع الإسلامي من هم على غير ديانة الإسلام بعد أن بين للناس طريق الرشاد وطريق الضلال. من هنا أرسى قاعدة الاختيار فقال تعالى: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ﴾ (البقرة 256).

إن تكريم الإنسان، وتحريره من العبودية، ثم الثقة المطلقة بعقله وتفكيره واختياره، وتبيان أسباب الخير والعدل والحق والمساواة له؛ كلها مبادئ سامية رسمها الإسلام طريقاً إلى صلاح الإنسان، وسلامة المجتمع في حفظ حقوق الأفراد والجماعات . إنها هي الطريق ذاتها التي جعلته ديناً صالحاً لكل زمان ومكان وإنسان.

المقدمة:

للحرية في المفهوم الفلسفي معان متعددة بتعدد المجالات المؤطرة لها، لكنها -بشكل عام-: «هي تلك الملكة الخاصة التي تميز الكائن الناطق من حيث هو موجود عاقل يصدر في أفعاله عن إرادته هو، لا عن أية إرادة أخرى غريبة عنه. فالحرية عبارة عن انعدام القسر الخارجي ...ومن هنا اصطلح على تعريفها بأنها اختيارالفعل عن روية مع استطاعة عدم اختياره أو اختيار ضده».(زكريا إبراهيم: مشكلة الحرية، مكتبة مصر، القاهرة ط 3، 1971،ص18).

ورد في النص السابق اقتران الحرية بالكائن الناطق العاقل؛ أي الإنسان. فالله – سبحانه وتعالى – خلق الإنسان من تراب لكنه خلقه في أحسن تقويم : ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [التين: 4] وفضله على سائر مخلوقاته، كما أن خلقه إياه لم يكن عبثاً وإنما خلقه لعبادته ولإقامة العدل في الأرض. ومن هنا كان الإنسان عند ربه معززاً مكرماً. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الإسراء:70].

وفي إطار هذا التكريم الرباني للإنسان، حماه من الرق والعبودية التي كانت مسلك الجاهليين في حياتهم. وعلى الرغم من أن القرآن الكريم لم يحرم الرق نصاً، لكنه سلك إلى تحرير الأرقاء سبلاً كثيرة، سواء أكان ذلك في حثه على فك الرقاب كقوله تعالى: ﴿وَمَآ

أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾﴾ [البلد: 13] أم في جعل ذلك طريقاً إلى كسب الحسنات. والأمثلة في هذا كثيرة، ومنها قوله عز وجل: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾ [البقرة 177]. كما جعل تحرير الرقبة فدية القتل الخطأ. قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ﴾ [النساء92]. ثم إن الإسلام كفل لهذه الفئة المستضعفة حقها في العمل وفي المعاملة الإنسانية الرحيمة . فمن رحمة الإسلام أن الرسول ساوى بين المملوك وسيده في المأكل والمشرب وطاقة العمل فقال -عليه السلام-: «إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تلبسون، ولا تكلفوهم من الأعمال ما لا يطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم» (عثمان ، محمد فتحي: حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية، والفكر القانوني، دار الشروق،بيروت/ القاهرة 1982، ص73). فالأصل في الإسلام الحرية والمساواة بين البشر بغض النظرعن مواقعهم الاجتماعية والعملية، ويكفي مثالاً عملياً أن بلالاً – رضي الله عنه – كان عبداً قبل أن يحرر بالإسلام، ويكون له فيه شأن عظيم.. فتحرير بلال «ثورة على عبودية الإنسان للإنسان، وانطلاق التحرر الذي انطلقت منه طاقة الإنسان الخلاقة كما كانت طاقة بلال بعد أن امتلك حريته وتابع يؤذن للحرية في دينه الجديد» (الكحلوت، عبد العزيز:الإسلام ثورة مستمرة، ليبيا، 1981، ص96).

فالحرية هي توق الإنسان إلى الكرامة ، والعدل، والمساواة الإنسانية. وما دام الله حفظ للإنسان كرامته فقد أصبحت الحرية جزءاً لا يتجزأ من هذه الكرامة . «فالحرية أحد أركان نظام الحكم الإسلامي، وهي الحرية، والعدالة، والمساواة، والتكافل الاجتماعي، والمعارضة الهادفة، والنقد الذاتي. وهذا النظام ليس مجرد هيكل هندسي ، وإنما هو روح وخلق ومعنى وممارسة والتزام وتطبيق لأنه نظام إلهي رباني» (الزحيلي، وهبة: حق الحريات في العالم ، دار الفكر، دمشق،دار الفكر المعاصر، بيروت 2000، ص 79). لقد تحقق ذلك عملياً في الدولة الإسلامية السمحة على لسان عمر بن الخطاب حين أنصف قبطياً مصرياً كان ابن عمرو بن العاص والي مصر آنذاك قد اعتدى عليه. قال عمر موجهاً كلامه لعمرو: «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟». لقد غدت هذه الواقعة مثالاً صارخاً على عدالة الإسلام ومساواته بين بني البشر خصوصاً حين مكن القبطي من ضرب ابن عمرو وهو يقول: اضرب ابن الأكرمين.

إن «رعاية هذه الحقوق المشتركة هي مراعاة للجانب العام من الحقوق، أو للجانب الاجتماعي في حقوق الفرد، وكثير منها يمكن أن يدخل فيما يسمى «بالتعسف في استعمال الحق». (السابق، ص 36). لقد كانت كلفة إطلاق الحريات في الإسلام والمحافظة عليها باهظةً جداً.

«لقد دفع الخلفاء الراشدون أرواحهم ثمناً لاستمرار الحرية ... وكان إيمانهم بالحرية والمساواة قوياً، وكان إيمانهم أقوى بتقدم الشعوب وسعادتها، هذا التقدم الذي لا يمكن لهذه الشعوب أن تحققه مالم تنعم بالحرية والأمن والمساواة» (الكحلوت: الإسلام ثورة مستمرة، ص 94-90). لكن هذه الحرية لم تكن مطلقة بحيث يفعل الفرد فيها ما يحلو له دون مراعاة للآخر وشؤون الدولة والمجتمع بأعرافه وأخلاقه وتقاليده العامة.

ولهذا اقترنت هذه الحرية الإنسانية بمجموعة من الحقوق والواجبات ومن أهم الحقوق:

1 - حرية الأمن والأمان

فالإنسان إن لم يشعر بالأمن اضطربت حياته عملياً وعقلياً وعاطفياً. وحين يكون في مثل هذه الحالة يلفه القلق من جوانبه كلها، لذلك يمكن أن يقدم على أمور تسيء إلى ذاته وإلى محيطه ومجتمعه وحكومته . وبناء على هذا لا بد للدولة الحاكمة من أن توفر له حياة آمنة يطمئن إليها كي يعمل بجد ونشاط يعززان مقومات الحياة والوجود والعلاقات السوية الداخلية والخارجية. إن هذه مسؤولية كل حكومة تسعى لتوفيرالأمان لشعبها، والنجاح الممكن لخططها الطموحة . فالواقع المستقر والمستقبل المزدهر هما الشغل الشاغل لدى كل دولة تريد أن تخدم شعبها وترعى مصالحه وتسعى لإقامة العدل بين أفراده وجماعاته على اختلاف طبقاتهم ومشاربهم واتجاهاتهم. وهذا ما أكده رب العزة في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾ [الحجرات: 13] وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ ٢٢﴾ [الروم: 22].

يؤكد رب العزة أن منشأ الناس جميعاً واحد من ذكر وأنثى ، لكن في هذا الخلق عبرة، هي اختلاف نوعي في الألسنة والألوان ، وتنوعي في توزيعهم إلى قبائل وشعوب ،إلا أن هذا الاختلاف – نوعياً أم اجتماعياً – محكوم بتوحدهم توحيداً روحياً تمثله إرادة

المولى من خلال التعارف على حد المساواة التامة التي لا يمتاز فيها أحد على أحد إلا بقدر الاقتراب من الخالق، سبحانه وتعالى . إن هذا ما عنته الآية بقولها: «إلابالتقوى». ففي الآية اعتراف بالتنوع البشري في حدود القبيلة والشعب لكن هذا التنوع هو اختبار لمدى أحقية الإنسان للتكريم في الإسلام . وهي أحقية يضبطها المقياس الإلهي الأسمى وهو: أن أكرم الناس عند الله أتقاهم لله وأكثرهم اقتراباً من شرعه في الخلق والعمل وتحقيق الكرامة الإنسانية بأعلى مراتبها في القول والمعاملة.

يقول الله تعالى في مكان آخر من السورة السابقة ذاتها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيۡرٗا مِّنۡهُمۡ وَلَا نِسَآءٞ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيۡرٗا مِّنۡهُنَّۖ وَلَا تَلۡمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلۡأَلۡقَٰبِۖ بِئۡسَ ٱلِٱسۡمُ ٱلۡفُسُوقُ بَعۡدَ ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١﴾ [الحجرات: 11]. فما دام الله – سبحانه – قد نفى الخيَرَة بين الناس في هذه الآية وما قبلها، فإنه –تعالى– حث المؤمنين على أن يطبقوا المساواة فيما بينهم؛ فإنهم إن فعلوا امتنعوا من إلحاق الأذى بعضهم ببعض؛ كسخرية أحدهم من الآخر ذكراً أم أنثى في المستوى الفردي أو الجماعي، و كالتنابز بالألقاب الذي لا يقل أذى عن السخرية. كل ذلك مرفوض في الإسلام وغير مقبول، وإن حدث فعلى الفاعل أن يتوب إلى الله تعالى وإلا سيحسب على الظالمين الذين أعد الله لهم في الآخرة عذاباً يستحقونه بعدالة.

لقد أكد الرسول الكريم – عليه الصلاة والسلام – هذه الأخوة الإسلامية وتلك المساواة بين الناس في أكثر من حديث شريف، لكنه حرص في حجة الوداع أن يؤكده حين قال: «كل المسلم على المسلم حرام : ماله وعرضه ودمه، حسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم» (أخرجه مسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة، رضي الله عنه، الزحيلي، 94).

وتابع ذلك الخلفاء الراشدون ومنهم أبو بكر الذي خاطب الناس بعد أن أصبح خليفة فقال: «أيها الناس، فإني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن رأيتموني على باطل فسددوني، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فيكم، فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم». وتبعه عمر حين خاطب الناس وهو خليفة فقال: «ألا إن رأيتم فيَّ اعوجاجاً فقوموني»، فرد عليه أحدهم بقوله: «والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا». فقال عمر: «الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوِّم عمر بحد السيف».

لم يكن قول أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – مجرد كلمات تمضي لتترك انطباعاً حسناً، ولكنها كانت كلمات خارجة من إحساس عميق وعظيم بالمسؤولية الكبرى التي ألقيت على كاهل كل منهما ؛ فهي صادقة تدل على أنهما يؤمنان بأن الحكم ليس انفراداً بالسلطة دون محاسبة من الشعب الذي منحها البيعة وتابع عمليهما بمراقبة شديدة واستعداد للمحاسبة القاسية مثلتها كلمات من رد على قول عمر: «والله لو رأينا فيك اعوجاجاً لقومناك بسيوفنا». فمثل هذا الرد من الجرأة والشدة ما لا يحتمله حاكم على رأس سلطة قوية، لكن عظمة عمر واستشعاره مسؤولية الحكم الرشيد أمليا عليه تفسير العبارة على أنها تنطق بحق المساءلة ممن أوكل إليه مهمة القيادة، لذلك جاء رده هادئاً وراضياً ومطمئناً: «الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوم عمر بحد السيف». وفي حادثة أخرى قال رجل لعمر: اتق الله ياعمر. فقال آخر: ألمثل أمير المؤمنين يقال مثل هذا الكلام؟ فأجاب عمر: «لا خير فيكم إن لم تقولوها، ولا خير فيَّ إن لم أسمعها» (الزحيلي، ص 134).

فأبعاد هذا الرد عظيمة من عدة نواح: أولها أن الحزم في رد الرجل على عمر الخليفة له دلالة على قوة العقيدة الدينية في ذاته، وأنه نموذج للإنسان المسلم الواثق بأنه ينطلق من إحساس المسلم الذي يؤمن بحق الإسلام في المساواة الإنسانية بين الحاكم والمحكوم ماداما ينفذان معاً واجباً دينياً مشتركاً بعيداً عن احتكار الحق العام. وفي مثل هذا الإحساس لدى كل منهما يستوي أمر الحياة بعدالة وإنصاف؛ بحيث لا يكون هناك تجبر حاكم ، ولا تخوف محكوم.

وليست هذه الحالة بين عمر والرجل المسلم حالة فردية حدثت في ظرف استثنائي، وإنما هي منهج حياة إسلامية تمثلت في موقف معين، وتكررت في مواقف مشابهة منها موقف عمر من امرأة مسلمة اعترضت على حكم له انتهى إلى اعتراف عمر بخطئه وبصوابها: وذلك حين قال عمر في جمع: لا تزيدوا في مهور النساء عن أربعين أوقية، فمن زاد ألقيت الزيادة في بيت المال. فقامت امرأة من صف النساء فقالت ما ذاك لك؟ قال: ولم؟ قالت لأن الله تعالى يقول: ﴿وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْـًٔا أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾﴾ [النساء: 20] فأقرها على ما قالت وقال قولته الشهيرة: «أصابت امرأة وأخطأ عمر».

هذه أمثلة حية قد تبدو مثالية مطلقة في بعض ما يجري من علاقة الحاكم والمحكوم في عالم اليوم الذي اضطر فيه المشرعون إلى وضع قواعد لحقوق الإنسان القائمة على

أساس الاعتراف بأن تلك الحقوق تعد «أصيلة وأزلية، فهي تسبق أي تشريع وتحكمه»:

أ – جاء في وثيقة استقلال أمريكا عن بريطانيا عام 1776 م: «إن كل الرجال قد ولدتهم أمهاتهم سواسية في الحقوق والمساواة والحرية والحياة والسعادة».

ب– وورد في إعلان حقوق الإنسان عقب الثورة الفرنسية عام 1789 «يولد الناس أحراراً ومتساوين في الحقوق»

ج– و قد صدرت وثيقة الإعلان العالمي لحقوق الإنسان عن الجمعية العامة للأمم المتحدة عام 1948، ثم أصبحت مرجعاً لوثائق حقوق الإنسان الصادرة في أنحاء العالم (انظر محمد فتحي عثمان في كتابه « حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي، دار الشروق، بيروت/ القاهرة 1982م ص 13-15).

ومع ذلك فإن خروقات لهذه الحقوق تسجل كل عام في كل مكان من العالم المتحضر. من هنا يمكن القول: يحق لكل مسلم أن يسعد حين يعلم أن هذه الحقوق قد سبق إقرارها في الإسلام منذ بداية وجوده، وأنها مورست فيه بصدق وبثقة كبرى بين الحكام والمحكومين؟ لقد أنتج هذا الصدق علاقة سوية جلبت تفاعلاً حيوياً، وتعاوناً إيجابياً عكس ترسيخاً جذرياً لعدالة اجتماعية متكاملة توافرت لكل فرد في الأمة، وذلك تجسيداً لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِ﴾ [المائدة: 2] وحديث الرسول – عليه السلام –: « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى» (أخرجه الإمام أحمد ومسلم عن النعمان بن بشير رضي الله عنه – الزحيلي81). وقد أحدث هذا لدى الفرد إحساساً بالأمن والأمان، فأبدع وأخلص في تشاركه مع غيره من أبناء الأمة حتى أعلى من شأن ذاته ورفع من إنتاجية دولته.

2 - حرية المسكن وحق العمل

من حق الإنسان أن يكون له مكان آمن يسكن إليه ويمارس فيه حريته الفردية بكرامة إنسانية كما منحها له الخالق سبحانه. قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا

وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ ﴿٨٠﴾ [النحل 80]. فالله – سبحانه وتعالى – يسر للإنسان كل أسباب العيش الهادئ الآمن: البيت للسكن والإقامة الدائمة فيه، والظعن بآلياته وأدواته ووسائله الخفيفة التي يسهل نقلها من مكان لمكان، وذلك مما خلق له من أنعام تعينه في هذه المهمة وتمده من خلال اتخاذه جلودها وأوبارها وأشعارها بيوتاً سهلة الظعن والإقامات المتنقلة هنا وهناك بحسب حاجته ومعيشته. وإذا كانت الأنعام هي الصالحة لتلك المهمة في ذلك الزمان القديم فإنها مثال وقاعدة لكل وسيلة يمكن أن تكون بديلاً أتم وأكمل لأسباب العيش المتطورة على الأيام كما هي الوسائل البديلة التي نستخدمها ونتعامل معها في أيامنا الحاضرة. وهي وسائل تتطور بما يتناسب والزمن القادم إلى ما شاء الله تعالى.

فالمهم هنا هو فهم معنى كلمة « السكن»كما أرادها رب العزة. إنها – بلا شك – تنأى بالمعنى عن حرفية الكلمة وماديتها إلى غايتها الإنسانية التي تعني الاطمئنان والأمان وممارسة الحرية الذاتية في عيش تهندسه الروح الإنسانية بالكيفية التي تريدها، لكي تصل بها إلى الرضا والشكر لله على نعمائه. ومن هنا نرى أن السكن هو منبع الإحساس بالسكينة معززاً بالشواهد الربانية في القرآن الكريم كالآيات التي ترى في الزواج سكناً ابتداء من خطاب الله تعالى لآدم عليه السلام: ﴿ وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ [البقرة: 35]، و وصولاً إلى قوله تعالى في خطابه الناس جميعاً: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ [الروم:21]. ومن ذلك أيضاً قرنه تعالى السكن برحمته حيث قال: ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ [القصص: 73] فكل من الليل والنهار فضاء مطلق وليس بيتاً محدداً بأعمدة وحواجز، و كذا الأزواج التي نسكن إليها ليست إلا سكناً روحياً، في آفاق حياتية ممتدة على الأيام والسنين.

ولاستكمال السكينة والخصوصية الذاتية جعل الله –تعالى– للبيوت حرمة محصنة من الانتهاك كما بين القرآن الكريم ذلك في أكثر من آية، فقال في بعضها: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ [النور: 27، 28].

ففي هاتين الآيتين تعزيز لكرامة الإنسان وحريته وخصوصيته في السكن الذي اختاره ليعيش فيه حياته على النحو الذي يبتغي بعيداً عن أعين الرقباء والفضوليين والمتلصصين الذين يتجسسون على غيرهم لغايات غير سوية خلافاً لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ [الحجرات 12]. ولهذا منع دخول البيوت إلا بعد الاستئذان والموافقة من ساكنيها، وإن قيل لهم ارجعوا فعليهم أن يرجعوا. جاء في الحديث توضيحاً للاستئذان: « إذا استأذن أحدكم ثلاثاً ولم يؤذن له فليرجع» (أخرجه أحمد والبخاري ومسلم وأبو داود . من الزحيلي، ص 91) . كل ذلك هيأه الله للناس حفاظاً لكرامتهم وتأكيداً لحريتهم لعلهم يشكرون من جهة، ولينصرفوا آمنين لما خلقوا له من جهة ثانية. فالله تعالى لم يخلق الناس عبثاً وإنما خلقهم لعبادته تعالى. قال : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56].

والعبادة طريق تقود للإيمان بقدرة الله وإرادته، وبأن الخير بيده، وهو أهدى سبيلاً. وبناء عليه فقد وسع خالق الإنسان للإنسان أفق الحركة والتنقل من أجل الوصول إلى غايته الفضلى في العيش مقيماً وظاعناً. كما هدتنا إلى ذلك آية السكن السابقة. ومن هنا حثت آيات في القرآن على حرية التنقل في أرض الله طلباً لمعيشة راضية مرضية. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: 15].

ففي هذه الآية الكريمة أكثر من معنى مرتبط بموضوع الحرية وحقوق الإنسان. وأول تلك المعاني الحرية الفردية التي تبيح للإنسان أن يرتاد ما شاء من أماكن في أرض الله الواسعة فلا حدود ولا قيود ولا جوازات سفر ولا تأشيرات، كما هو الحال في هذه الأيام. وأبعد من هذا أن الأرض فضاء مكاني يتنقل فيه الإنسان حراً لا يقيده في المكان المختار منها جنس أو لون أو مركز اجتماعي؛ فالتنقل في الأمكنة لا يخضع لشروط بشرية من أي نوع، والشرط الوحيد هو الترحال لهدف نبيل له مساس بطلب العيش الكريم في حدود الضوابط الإلهية. فحرية التنقل والمشاركة في العيش دون تعد على حدود الله والحياة المشتركة بين البشر مكفولة في الإسلام؛ لأن الأرض فوضها الله لعباده المخلصين بلا بغي ولا احتكار.

أما المعنى الآخر فمرتبط بكلمة «ذلولاً» في الآية الكريمة. إن الكلمة هنا ليست بعيدة عن أجواء الآية السابقة التي هيئ للإنسان فيها ما تمده الأنعام من وسائل يحتاجها للظعن والإقامة في هذه الأرض كما مر؛ فبتلك الوسائل تذلل الأرض وتصبح قابلة للمشي وطلب

الرزق المتيسر في مناكبها. والآيتان معاً يدفعان إلى أن يعمل الإنسان بجد كي يصل إلى أن تصبح الأرض المرتادة ممهدة له «ذلولاً». إنه بحاجة لإرادة قوية أولاً؛ لأن السير في فضاء مفتوح بحاجة إلى إعداد نفسي وعملي وجهد وإبداع لتكييف المكان الصالح لحاجات كل منا على اختلاف هذه الحاجات. والمكان الملائم يقتضي جهداً لاستغلال مافيه من خير. والجهد مرهون بقدر الغاية والمهمة؛ فمن فائض الإخلاص يغدو المكان ذلولاً يفيض خيراً عميماً.

إن هذا قدر الإنسان في الحياة حتى يوم «النشور»: فمن فضل الله -تعالى- أن منح الإنسان الأرض ، ثم أوكل له العمل بقدرته وإرادته كي يحقق لذاته من أسباب الرزق ما يستحق العناء والإبداع. قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتًا فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾﴾ [الأعراف: 74].

كنا ألمحنا أن حرية الإنسان في استعمال الأرض مقرونة بضوابط الأخلاق الإنسانية العامة حتى يكون الناتج رزقاً غير مشوب بشائبة تفسده وتطيح بكامل العمل فيه. لقد أكدت هذه الآية ذلك عن طريقين: أولهما أن إصرار عاد على الكفر حبط ما أنجزته من عمل، وأن فساد عملها قاد إلى تدميره ليكون عبرة لمن أساء استغلال الأرض وسار به خلافاً لمشيئة الله في إعمارها لا في خرابها. وثانيهما: أن الله – سبحانه – أراد من المؤمنين أن يبدعوا ما شاء لهم من بيوت وقصور، وأن يستغلوا تضاريس الأرض باستحداث ما يبتغون، لكن على أن يكون ذلك مقروناً إليه الإيمان به، جل وعلا، ومرفقاً بذكر نعمائه تعالى. كون الإيمان والذكر هما الضامن الأمثل لاستقامة العمل وعدم إحباطه مثلما نصت عليه الآية الكريمة.

3 - حرية العلم والتعليم

إن من يتكلم عن العلم والحث على طلبه يصبح في حضور مباشر مع أول سورة نزلت على محمد – عليه السلام – وهي قول الله تعالى : ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ [العلق: 1 - 5].

لقد هيأ الله تعالى للعلم أدواته وهي الكتابة ووسيلتها القلم، والقراءة ودلالتها فعل أمر مبدوء به (اقرأ). والإنسان هو محور الخطاب الموجه إليه من ربه تعالى. لكن ذلك كله محكوم بهداية الله وإرادته في تعليم الإنسان « ما لم يعلم». وإذا استعرضنا الآيات التي

تكرر فيها أهل العلم من مثل لفظة (العلماء) أو (أولو العلم) أو (الراسخون في العلم) وجدنا أن هؤلاء هم أقرب من غيرهم إيماناً بالله وخشية منه، لذا أمسوا المعول عليهم في تصديق الرسل والأنبياء . ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴿٢٨﴾﴾ [فاطر: 28].

فالخشية من الله علامة الإيمان به، سبحانه، وهي ناتجة من تدبر ومعرفة وتصديق، لذلك هي أبعد في العقل وأوثق في القلب ، والمعول عليها في العصمة من الزيغ والميل والتشكيك. إنها الفئة المعينة للرسول في هداية الآخرين وتثبيت الإيمان في قلوبهم. فهذه الآية مميزة في أسلوب التقديم والتأخير المعتمد لغاية عقدية مهمة، كما أرى. إنها تحافظ فيه على ترتيب أولية الذكر لله – تعالى – وتأخير ماعداه ، كما أن العلماء المذكورين طرفاً فيها يدركون تلك الأبعاد ولا يخطئونها، خصوصاً أنهم أقدر من غيرهم على تذوق الأسلوب الجمالي الكامن في أعطافها.

والآيات الأخرى التالية تؤكد ما أكدته هذه الآية من أن العلماء أوثق إيماناً، وأصدق معرفة ، وأوكد بصيرة ، وأكبر معيناً للرسل في تصديق رسالاتهم. من ذلك قوله تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾﴾ [النساء: 162] وقوله –عز وجل–: ﴿ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾ [سبأ: 6]. وعلى النقيض من تصديق العلماء الرسول لما أنزل إليه من ربه هو الحق كان خطاب القرآن للمعاندين أنهم يجادلون الرسول بغير علم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٣﴾﴾ [الحج: 3] وقوله –عز من قائل–: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]. فالموازنة الربانية فيما هو خير ونافع للناس هي بين العلم والجهل، أو بين الظلمات والنور. ومن هنا ربط الله – تعالى – ذاته بالعلم من ناحية حين قال في كتابه العزيز : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا ﴿١٢﴾﴾ [الطلاق: 12] وبالنور من ناحية ثانية: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [النور: 35]. وهو الذي يخرج المؤمنين من الظلمات إلى النور لقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [الحديد: 9]. فالفرق بين عقل

حرّكَهُ العلم ليرى الحقيقة ناصعة ، وجهل بقي على ما ورثه من آبائه ولو كان باطلاً. قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: 9].

فالعلم أس عظيم من أسس الإسلام وركن أساس في بناء الدولة الإسلامية ونمائها. لأجل هذا صار طلبه فريضة على المسلمين. قال – عليه الصلاة والسلام –: « طلب العلم فريضة على كل مسلم» (أخرجه الطبراني والبيهقي عن أبي سعيد الخدري، وهو صحيح– الزحيلي 184). وطريق العلم في الإسلام طريق سالك نحو الجنة مثلما قال – عليه السلام–: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم» (أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجة وغيرهم – الزحيلي، ص 184).

إن فضيلة العلم في إنارة القلوب بالإيمان، وتبصرة العقول بمعرفة الحق هما الدافع الحقيقي–كما أرى – للاهتمام الديني في العلم. ولعل المقارنة بين العقل والهوى تمثل ثنائية بين الهداية والضلال. فكثيرة هي الآيات التي تحفز العقول إلى الهداية ورؤية الحق من خلال الآيات التي تنتهي بتأنيب الكفار والمشركين على عدم استخدام عقولهم فيما يتلى عليهم، كقوله تعالى: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: 67]. وبالمقابل فإن كلمة الهوى ومشتقاتها جاءت في القرآن مصاحبة للضلال وعدم الهداية، كهذه الآية: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [البقرة: 87]. ومن هنا ارتفعت درجة العلماء عند الباري – عز وجل – لقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [المجادلة: 11]؛ الأمر الذي سهل للناس رغبة أكيدة في طلب العلم والاستزادة فيه لقوله تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾﴾ [طه: 114]، فالعلم والعقل في الإسلام صنوان لا يفترقان. وإن هذا ليدحض كل قول وصف الرسول – عليه السلام – بخلاف ذلك: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾﴾[النجم: 3-4].

4 - حرية الرأي والفكر

وانطلاقاً مما انتهينا إليه من احترام الإسلام للعقل وما يصدر عنه من أحكام منطقية في رؤية الحق الإلهي، فإن الإسلام سعى إلى حرية الفكر في شؤون الحياة الدنيا والآخرة. ففي القرآن العظيم آيات تترى تحث على التفكير السليم؛ لأنه في

النهاية سيصل بصاحبه إلى نور الحقيقة التي جاءت بها رسالة محمد – عليه الصلاة والسلام – إلى البشرية جمعاء. كيف لا تكون كذلك وهي من عند واحد أحد يريد بعباده الخير ولا يريد لهم الشر. ومن تلك الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾ [آل عمران: 190-191] وبعد آيات من الدعاء مماثلة جاءت آية الاستجابة من العلي القدير تقول: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].

من الواضح أن تكامل الصورة في هذه الآيات التي اعتمدت التفكير السليم، وتلك الآيات التي سبق أن اعتمدت العقل قد وصلت بالمفكرين العقلاء الراسخين في العلم هناك، وأولي الألباب هنا إلى أن هذا الخلق العجيب لا يمكن أن يكون عبثاً ومن دون مدبر؛ الأمر الذي قاد – بالضرورة – إلى النتيجة المنطقية وهي الإيمان بحقيقة الوجود الإلهي . وانطلاقاً من هذا الإيمان الراسخ في العقول والمصدق من القلوب باشر المؤمنون بالتوجه إلى خالق الكون وخالقهم بالدعاء عسى أن يغفر لهم ذنوبهم ويتوفاهم مع الأبرار، ويمنحهم مباعدة بينهم والعقاب حتى لا يخزيهم يوم الحساب . وجاءتهم إجابة ربهم العلي القدير سريعة بتلبية كل ما طلبوا جزاء وفاقاً لخيرٍ مستحقٍّ لمن آمن بعد تدبر وحسن تفكير.

وما دام التفكير الراشد يقود إلى مثل هذه النتيجة القاصدة، فإن الإسلام رحب به ودعا إليه. قال تعالى في هذا السياق: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [آل عمران: 104]. فالفعل المبدوء بلام الأمر واجب الاقتضاء؛ لأنه من الذات العلية أولاً، ولأنه دعوة مخصوصة بجماعة من جنس أولئك العقلاء أولي الألباب المؤمنين إيمان حق بفكر ثاقب وقلب خاشع ثانياً؛ ولأنه يسري في إطار الفلاح القاضي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ثالثاً. لذا يصير الأمر لازماً؛ لأنه تكليف رباني لتكثير الخير وتحصين « الأمة» الخيرة من كل شر ممكن أو محتمل. أما الواو التي سبقت فعل الأمر ففائدتها عظيمة وتفسيرها لا يتم من خلال الآية نفسها فقط، وإنما من الآية السابقة عليها، وهي آية الارتباط الوثيق بحبل الله : ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم

بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ [آل عمران: 103].

إن هذا التغيير الإلهي للأفضل الذي أنقذ أبناء الأمة من التفرقة فأمسوا إخواناً بعد أن كانوا أعداء، بحاجة إلى الأخيار الذين مهمتهم استمرار الوثاق بحبل الله وعدم التفرقة من جديد، من هنا جاء أمر الله في الآية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ...﴾. فالواو موقعها النحوي عطف جملة على أخرى، لكنها تأويلاً تتعدى كونها عطفاً إعرابياً إلى كونها جامعة مانعة في ارتباط الآيتين معاً على هدف خير ثابت ودائم بأمر من الله تعالى . بل إنها أعطت الأمر الإلهي تفسيراً مضافاً لما قيل فيه سابقاً. إنه أمر واجب الآن لأن الله – تعالى – أراد من نعمته في تغيير علاقات أبناء الأمة الواحدة أن يمتد أثر هذه النعمة في أمة خيرة تستمر في الأمر بالمعروف – وهو هنا الأخوة الحادثة– والنهي عن المنكر – أي العداوة القديمة – كي يبقى للفلاح فيها ديمومة ثابتة بإذنه تعالى. فالآيتان معاً دعوة إلى التفكير السوي في بناء الأمة المتحابة المجتمعة على التآلف والتوحد من خلال فكر جماعي تعاضدي يؤلّف بالخير ولا يفرّق بالشر.

إن هذه الدعوة الربانية يتجاوب معها حديث الرسول الكريم: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع، فبلسانه، فمن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان» (أخرجه أحمد ومسلم وأصحاب السنن الأربعة عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه – الزحيلي، ص113).

إنها دعوة للتصافي والمحبة وهي دعوة دأب القرآن الكريم على تأكيدها في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [فصلت: 34].

ولما كان استخدام التفكير الحر يمكن أن يقود إلى الاختلاف فإن الحل في الإسلام يجب أن ينتهي بكلمة سواء لاخصام فيها . يمثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: 63]، وقوله: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴿١٢٥﴾﴾ [النحل: 125]. فالذي يحكم هذه الآيات القرآنية هو النية الطيبة والتفكير الهادئ السليم القاصد إلى الإصلاح ما وسعه ذلك من حلم وصبر جميل.

ولم تكن مثل هذه الدعوات الفكرية الصائبة خاصة بالمسلمين فيما بينهم وحدهم بل امتدت إلى أهل الكتاب الذين بينهم وبين المسلمين شراكة على التوحيد والعيش المشترك.

فالجدل معهم مستمر وغير منقطع لكنه في الإسلام جدل بالحسنى: قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: 46] فالمبادرة الإسلامية في الخطاب هي بالتي أحسن تنفيذاً لأوامر الله مادام خطابهم المسلمين على الشاكلة ذاتها، لكن الخطاب يمكن أن يتغير مجراه إلى النقيض تجاه بعضهم ممن ينحرفون به نحو التعدي والظلم .

فخطاب الإسلام لأهل الكتاب هو المبادرة إلى التوافق على المشترك ما داموا راغبين في ذلك، لكن من يصر على غيره فالطريق في خطابه مختلف تماماً. وبناء على هذا ورد توجيه الله تعالى لنبيه الكريم بالآتي : ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: 64]. فالآية تحدد – بلا مواربة – السلوك السوي في تحكيم العقل والتفكير الإيجابي لحل الخلاف بين طرفين مختلفين في الأسلوب لا في الكليات العقدية. إنها دعوة إلى الحل للالتقاء على كلمة سواء تؤكد الاتفاق على المشترك وهو عبادة الله وحده وعدم إشراك غيره معه في وحدانيته، وتسعى للتوافق على نقاط الخلاف وهي قياساً بالمشترك بسيطة: أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً من دون الله. هذا هو موضوع «الكلمة السواء» التي تعني بلغة العصر حواراً فكرياً سلمياً حراً مقصوداً به أن يؤول إلى اتفاق أو افتراق. أما إن ﴿تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾.

وخاتمة الآية هذه فيها إشكال محتمل لمعنى كلمة « مسلمون» في موقعها من النص. آلمقصود تأكيد إسلامية المحاورين من المسلمين فقط ، أم أن معنى الكلمة يتعدى هذا التأكيد إلى التركيز على رسالة الإسلام وهي السلام بينهم وبين المختلفين معهم من أهل الكتاب؟ أما أنا فأعتقد أن المعنيين معاً متلازمان وإن كان تأكيد السلام مقترناً بالإسلام هو الهدف الأسمى لمعنى كلمة «مسلمون» في نهاية الآية، وذلك لتحميل الطرف الآخر مسؤولية الانحراف عن جادة السلام، وحرص المسلمين على الانخراط فيه تحقيقاً عملياً لرسالة الإسلام الحنيف وهي رسالة السلام. وعلى أية حال فهذا الحرص آت من تعليمات الباري – عز وجل – في محكم كتابه العزيز ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ ٦١﴾ [الأنفال:61]. إنه الحرص على عدم انتقال الحوار من الكلام إلى القتال، وهذا منطقي مادام الخطاب المأمور به نحو أهل الكتاب هو «بالتي أحسن» كما

في الآية السابقة. بل هو تأكيد أن الإسلام لم يكن دموياً في يوم من الأيام ما دام الخلاف يمكن أن يسوى سلمياً.

5 - حرية المعتقد

طريق الدعوة إلى الله رسمه رب العالمين في خطابه لنبيه – عليه السلام – حين قال في كتابه العزيز : ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ﴾ [النحل: 125]. والرسول المخاطب في هذه الآية تكفله الله وعلمه ورباه فكان بأخلاقه العالية العظيمة قدوة حسنة يقتدى بها في كل فعل صالح، ومسلك قاصد. وبهذا استحق النبي – عليه أفضل الصلاة والسلام – امتداح ربه له في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ٤﴾ [القلم: 4]. فالتقاء هذا الخلق العظيم بالحكمة والموعظة الحسنة أسلوباً في الدعوة إلى الله كفل اجتماع كل ذي عقل سوي على مبادئ الإسلام السمحة، والتفاف أخيار الناس حول الرسول الكريم في دعوته للواحد الأحد . لكن أشرار الناس ممن أعمتهم جهالتهم عن رؤية الحق في دعوة محمد حبط رب محمد أعمالهم.

محمد هذا النبي العربي الأمين قدوة المؤمنين ورافع راية الإسلام جمع الناس على الخير حتى غدت محبتهم له إلهاماً روحياً عزز الثقة بالدين القيم الذي اختاروه بطمأنينة في نفوسهم وقلوبهم وعقولهم. محمد هذا الرسول الكريم ذو الخلق العظيم أفاض على أتباعه من صبره وحلمه ولطفه وسماحته ومحبته وطيب معشره وسلاسة خطابه ورقة قلبه ما لا يمكن أن يتصور في غيره من البشر؛ لذلك امتدح رب العزة تأثيره في لم شمل المسلمين والتقائهم عليه، فقال: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: 159].

إن الرسالة المحمدية، بهذا الأسلوب الرحيم ، و الأخلاق العظيمة ، والموعظة الحسنة وصلت بأحكم الآيات إلى كل ذي لب سديد، فصار الدين الجديد كاملاً قوياً محفوظاً بمشيئة الله وقدرته : ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ٩﴾ [الحجر: 9].

فالله – تعالى – هيأ لحفظ هذا الدين أسباباً ووسائل حين خلق الجنة والنار، ووجد للإنسان عقلاً يزن فيه الخير والشر ، ثم ترك له خيار الإيمان الهادي إلى الجنة، أوالكفر المضل إلى النار.

قال تعالى: ﴿وَقُلِ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكُمۡۖ فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَاۚ وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ يَشۡوِي ٱلۡوُجُوهَۚ بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا ٣٠ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ٣١﴾ [الكهف: 29-31].

فعمل الإنسان في الدنيا يقوده إلى أحد المسارين: العمل الصالح- نبع الإيمان- أعدت لفاعله جنة تجري من تحتها الأنهار، والعمل الضال- قرين الكفر والطغيان - تحيط بفاعله سُرادق النار. إن هذا التقابل بين الخير والشر متكرر في القرآن الكريم تذكيراً للإنسان بأنه هو من يحدد مقامه في الآخرة : ﴿يَوۡمَئِذٖ يَصۡدُرُ ٱلنَّاسُ أَشۡتَاتٗا لِّيُرَوۡاْ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٦ فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ ٨﴾ [الزلزلة: 6-8].

فالأمر اختيار لا إجبار فيه؛ لأن المراد هو أن يتحمل الإنسان نتيجة إرادته؛ إن خيراً فخير وإن شراً فشر. لذلك قال الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [البقرة 256]. عدم الإكراه في الدين آت من ذلك الاختيار المشار إليه ، ومؤكد بقوله تعالى: ﴿قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ . هذه كلمات مرادفة لما يماثل معناها من الخير والشر في آيات الزلزلة، والإيمان والكفر في آيات الكهف سابقاً. إنها مقابلة مكررة بألفاظ وكلمات مختلفة بحسب السياقات المتعددة لكنها جميعاً تقود إلى نقيضي المآل: الجنة، أوالنار.

لقد خص الله في الآية جزاء من كفر بالطاغوت وآمن بالله، واستمسك بالعروة الوثقى القوية التي لا يخشى من انفصامها بإدخاله الجنة التي استحقها بجدارة إيمانه. وقد يلوح في الخاطر هنا أن العروة الوثقى هذه خاصة بالمؤمنين بالله وحدهم منزهة عن غيرهم. إن مثل تلك الخصوصية تكريم من الله لهم، وإن إبعاده غيرهم عنها تحقير لهم وازدراء بمعتقداتهم.

لكن الأمر الذي نجد أن القرآن الكريم يؤكده دائماً هو إطلاق الحرية في الاعتقاد على الرغم من قدرة الله في جعل الناس جميعاً مؤمنين لو شاء ، كمثل الآية التالية: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ٩٩﴾ [يونس: 99]. وبعد بضع آيات من السورة ذاتها تأتي آية توضح مهمة الرسول إلى الناس:

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [يونس: 108].

فهاتان الآيتان متلازمتان: فهما خطاب من الله العزيز الحكيم لرسوله الكريم مبدوءة أولاهما باستفهام إنكاري: « أفأنت تكره الناس.....» وقد يكون في هذا الإنكار رداً على من ظن أو اعتقد أو تقول على الرسول بما لم يقل أو يفعل . وربما يكون نوعاً من العتاب الرقيق على عمل صدر منه – عليه السلام – دون ما قصد ، مثل عتابه تعالى للرسول حين أذن لبعض المنافقين بالتخلف عن غزوة تبوك : ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [التوبة: 43]. ولذلك جاءت الآية التالية تعلم محمداً – صلوات الله عليه – طبيعة مهمته وهي أن رسالته إلى الناس تتمثل في هدايتهم إلى الحق، ثم تركهم وما يختارون دونما إكراه. فكل منهم يعلم أين يؤدي به اختياره. أما جملة النهاية : ﴿وما أنا عليكم بوكيل﴾ فوضحت مهمة الرسول الكريم في الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، فهو – عليه السلام – ليس وكيلاً لأي منهم في اختياره . ويعزز ذلك قوله تعالى : ﴿قُلْ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا۟ ۚ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾﴾ [النور: 54].

حرية الاعتقاد في الإسلام هي أعلى غايات الانعتاق النفسي ، وأبعد مرامي الالتزام الذاتي بمسؤولية القرار وما يترتب عليه من تكريم أو تجريم . ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾﴾ [الإسراء: 13-14]. هل هناك أبعد حقاً وأكمل حرية من أن يحاسب الإنسان نفسه على ما اجترحه من أفعال؟! لقد أكد مضمون الآية، وعزز ما فيها من إنصاف، الحديث القدسي: «يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها؛ فمن وجد خيراً فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» (رواه مسلم –انظر مختصر مسلم للمنذري243/2).

لعل مِن أنصفِ ما قيل في شأن هذه الحرية القصوى قول أحدهم : «وحرية التدين هي أخطر صور الحرية الفكرية وأشدها حساسية، فإذا ضمنها الإسلام فقد بلغ الذروة في ضمان حرية التفكير ... وحرية الرأي والتعبير» (محمد فتحي عثمان: حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني، دار الشروق – بيروت/ القاهرة 1982، ص97).

6 - حرية الرأي

إن سلامة العقيدة الإسلامية لتبعث في المسلم ثقة بالله ورسوله، ومن كنه هذه الثقة أن يصبح رأيه في الحياة وما بعد الحياة ذا قيمة ويبعث على الثقة بالنفس والرأي. بل إن رأيه ليس مجرد حق شخصي وإنما هو واجب عليه أن يؤديه صادقاً ليسعف في نمو الفكر وتطوره على الأيام وفقاً لمستجدات الحياة. وفي هذا يأمر الله المؤمن أن يدعو إلى الحق بالكلمة الحسنة لقوله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل: 125]. فالإسلام يريد أن يقبل عليه الناس برغبة قلبية وقناعة عقلية ولا يتأتى له ذلك إلا بقول حسن يستفز القلوب لتتقبله، وبحكمة تستحث العقول لتستجيب له.

وقد ميز الله – عز وجل – بين الكلمة الطيبة والكلمة الخبيثة بصورتين فنيتين معبرتين عن جمال الأولى وقبح الثانية، حيث قال – تعالى – في جمال الأولى: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم: 24-25]. أما الضد أو قبح الثانية ففي قوله تعالى متابعاً: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ ﴾ [إبراهيم: 26] فالطيبة منبتها طيب وقيمتها عالية، وهي تثمر في كل حين كما أراد لها ربها كي تمنح الصالحين ما يستحقون من العطاء، أما الخبيثة فمنبتها خبيث لذا ولدت ميتة لا حياة فيها ولا ثمر لها. وليست الكلمة الطيبة هنا إلا رديفاً للرأي الصادق والقول السديد، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأحزاب:70]. وهناك أحاديث كثيرة تدفع بالرأي الصواب إلى الأمام. مثال ذلك قول الرسول الكريم: «لا تكونوا إمعة، تقولون: إن أحسن الناس أحسنّا، وإن ظلموا ظلمنا، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا، وإن أساؤوا ألا تظلموا» (أخرجه الترمذي وقال حديث حسن عن الحذيفة بن يمان، رضي الله عنه – الزحيلي، ص113). وقال أيضاً في الرأي الصائب عند صاحب سلطان باغ : «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر» (أخرجه ابن ماجة عن أبي سعيد الخدري وهو صحيح – الزحيلي، ص113). فالرسول – عليه السلام – يعرف من خلال دعوته أن كلمة الحق تأخذ بالقلوب والعقول، ويكون لها فعل السحر ما دامت تدعو إلى

الإصلاح، لذا وجب أن يسمعها من بيده السلطان كي يرتدع إن كان جائراً، أو يتدارك الخلل إن كان غافلاً. لهذا يمكن القول: إن من الكلام لأمضى من حد الحسام. لعل الجوانب المشرقة من حرية الرأي ممثلة في آيات الشورى. ففي القرآن العظيم سورة باسم «الشورى» وهي مكية في الجزء الخامس عشر منه. ومنها قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى: 38]. ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: 39]، فهاتان آيتان تمثلان نمطين من السلوك الإنساني والرأي فيه تجاه الحياة وشؤونها. وهما مثال لما في أغلب آيات هذه السورة من مقارنة بين فئتين : إحداهما عادلة، وأخرى باغية.

أما رأي الأولى فمثلته الآية الأولى. إنه محكوم بالشورى«فأمرهم شورى بينهم»، والشورى مسبوقة بالاعتقاد والعمل: أما الاعتقاد فجسدته استجابتهم لربهم، والاستجابة تقود إلى الطاعة. وأما العمل فإقامة الصلاة. والصلاة تمثل نموذج العمل الإسلامي المتكامل. إن هاتين القاعدتين الملتزمتين بأوامر الله هما اللتان هيأ السلوك التالي لهما وهو المشورة ؛ أي أن الواحد منهم يصغي لرأي الآخر فيتدبره قبل أن يقرر الطريق الذي يسلكه، وهو لا يحيد قطعاً عن الضوابط السابقة التي تحكم المؤمنين بالله جميعاً، وهي التقيد بالإيمان والعمل به طاعة لله. لهذا لا يمكن أن يكون في رأي أي منهم أو مسلكه خروج عن تلك الحدود. إلا أن ذلك لا يمنع التمتع بالخصوصية الفردية ، مع الإقرار بإمكانية الاختلاف في الرأي مع الآخر ضمن تلك الحدود. فالمشورة هي في ضبط السلوك وتوجيهه وليس في فرض واحدية الرأي، فحرية الرأي مكفولة في حدود الشرع والالتزام به وعدم الخروج عليه . وهذا هو معنى الحرية والالتزام، أو ما يمكن أن يسمى في الوقت الحاضر الحرية الدستورية أو القانونية.

أما الرأي الآخر فهو منتج للسلوك النقيض المبتلى بالبغي . وحين نعود إلى وصف القرآن له نجد فيه اختياراً لعبارة : «أصابهم البغي» وكأنها مرادفة لعبارة (أصابهم مرض). والبغي في النتيجة هنا لا يختلف عن المرض العضال الذي لا دواء يشفيه. وهذا نفسه هو الذي ساق من أصابهم البغي إلى الانتصار لأنفسهم المريضة في تحللهم من أية مشورة دينية أو خلقية؛ لأجل هذا بغوا فأحلوا حراماً وحرموا حلالاً وسلكوا إلى ظلم العباد طريق الضلال في الدنيا، وإلى ظلم أنفسهم الثبور في الآخرة ويوم الحساب.

لا أعتقد أن من المفيد النظر إلى هاتين الآيتين اللتين تحددان نوعين متضادين في السلوك الإنساني بعيداً عما تلاهما من آيات ؛ ذلك أن بعضاً مما تلاهما مرتبط بنتائج السلوك فيهما. والنتائج لها علاقة بكلمة « انتصر» ذات الأثر السيئ في سياق الآية الثانية الخاصة بالبغي، مع أن معناها قد ينصرف إلى المعنى الحسن إذا صدر عن المؤمنين أهل المشورة في الأولى. وهذا ما جرى فعلاً في قوله تعالى : ﴿ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعۡدَ ظُلۡمِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَا عَلَيۡهِم مِّن سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ ﴾ [الشورى:41]. فالانتصار هنا انتصار مشروع؛ لأنه انتصار على الظلم بعد الصبر عليه والمكابدة فيه، لذا استحق الصابرون أن يوصف عملهم من عزم الأمور كما في آية تالية: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الشورى:43]. من أجل ذلك استحق الانتصار أن يكون مسبوقاً بمشورة جماعية، فما كان له أن يتحصل إلا بالتكاتف والمساندة المتولدة من تلك المشورة. فالمشورة قوة ، والنتيجة انتصار فمكافأة.

وعلى النقيض من ذلك فقد جلب انتصار البغاة عليهم سوط عذاب، مثلما وصفت آية تالية: ﴿ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظۡلِمُونَ ٱلنَّاسَ وَيَبۡغُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الشورى: 42]. وهكذا سارت بقية آيات السورة تقارن بين كسب أهل الحق، وخسران أهل البغي. ووردت كلمة الشورى في توجيه الله لرسوله في آية من سورة آل عمران تقول: ﴿ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: 159]. وقد تلتها آية مرتبطة بها ارتباط السبب بالنتيجة. قال تعالى: ﴿ إِن يَنصُرۡكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمۡۖ وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾ [آل عمران: 160].

إن الأجواء التي أحيطت فيها معاني آية «الشورى» هنا ليست بعيدة عن مثيلتها في الآية السابقة. ففي الآيتين عفو وغفران، وفيهما عزم وانتصار. لكن الذي يبدو أن الشورى في الآيتين واجبة؛ لأن الفعل المترتب عليها يستوجب التزاماً وتكاتفاً لإنجازه، وهو الدخول في معركة فاصلة بين الانتصار والخذلان. من هنا جاء أمر الله لرسوله أن يشاور أصحابه في شؤون القتال حتى يكون الالتزام جماعياً؛ لأنه قرار مصيري يتحملون جميعاً مسؤوليته، وترتد نتائجه عليهم أجمعين . لكن من الواضح أن القرار النهائي يكون بيد قائد الأمة إلى الخير. من هنا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ﴾. فمع أن الله تعالى قد وعدهم بالنصر، لكنه كان قد أمر نبيه – وهو قائدهم – بمشورتهم في الحرب إشعاراً منه بأهمية

المشورة في الأمور المصيرية. فالشورى سياسة اقتضت مصلحة المؤمنين العليا أن تتبع. إنها سياسة تقود في النهاية إلى نصرمن الله، مثلما يتمثل ذلك في تشارك الأقطاب الثلاثة المتفاعلة لتحصيل النصر؛ وهذه الأقطاب هي:1 – الشورى (الرأي الجماعي)، 2 –والعزم (القرار)، 3 – والتوكل على الله (الفعل أوالتنفيذ). وقد يشكل المثلث التالي لوحة توجز ذلك التشارك وتشير إلى النتيجة المفرحة: (النصر).

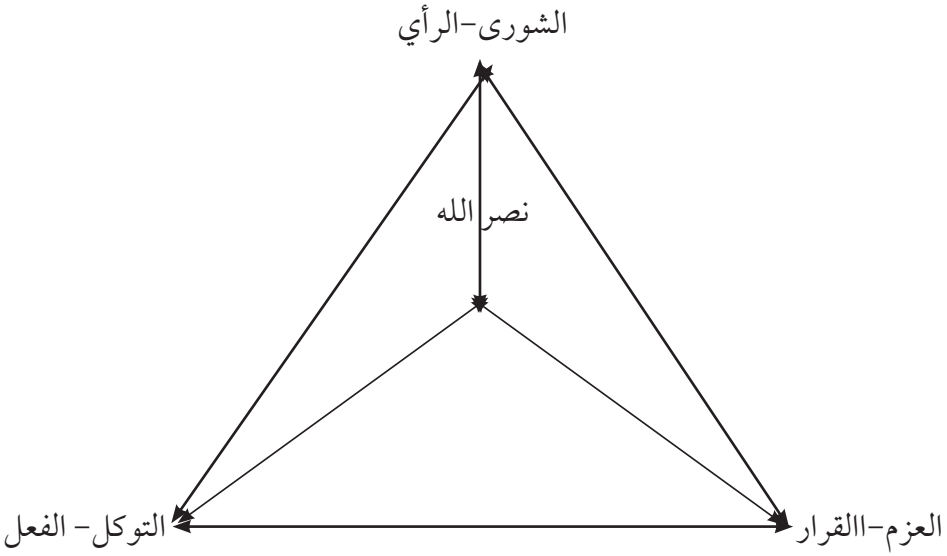

7 - حق الملكية وحرية التصرف فيها

أولاً- ملكية الأرض

الأصل هو أن الملك كله لله لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾﴾ [المائدة: 17]، وأن الإنسان مستخلف في ملك الله، وهو في الإنفاق مأمور أن ينفق مما استخلفه الله فيه. قال تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ ﴿٧﴾﴾ [الحديد: 7]. لكن هذا الاستخلاف العام لم ينف حق الملكية الفردية التي تقتضي عملاً وإنتاجاً. قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ [الملك: 15]. ولقد اقتضى هذا عملاً دؤوباً موجهاً لنفع الذات ومحكوماً بتوجيه الله في استثمار الأرض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ

لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ وَذَرُوا۟ ٱلْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ ٱلصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الجمعة: 9-10].

فمضمون الآيتين يحمل عملين متوافقين: عمل في طاعة الله ، وعمل في نفع الذات. وهما في الإسلام متكاملان؛ لأن العمل النافع نوع من طاعة الله أيضاً لقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: 97]. فالقيمة الكبرى للعمل إنما هي فيما ينتج عنه من فائدة للعامل وللدولة التي ترعاه معاً.

ثانياً- ملكية المال

علم الله الإنسان مالم يعلم؛ ومما علمه -سبحانه- للإنسان أن حبه لامتلاك المال حب طاغ. قال تعالى: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾﴾ [الفجر:20]. ولذلك جعل الله زينة الحياة الدنيا في اقتران المال والبنين معاً، فقال: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾﴾ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: 46]. ومثلها قوله تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ [الحديد: 20]. ويأتي في هذا السياق قول المصطفى - عليه السلام -: «لو كان لابن آدم واد من المال لابتغى إليه ثانياً، ولو كان له واديان لابتغى لهما ثالثاً، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب» (أخرجه أحمد والشيخان. الزحيلي، ص194). لكن الطبيعة البشرية في اقتران حبها المال بحب البنين دلالة على أعلى درجات الحب.إن تلك الطبيعة إنما هي مخيرة بين أمرين : أن يلهيها مال الدنيا عن ذكر الله فتخسر مكانة الزاهدين في الآخرة ، ثم يقودها ذلك الخسران إلى نار جهنم وبئس المهاد، أو أن يكون هذا المال سبباً في أن تتبوأ به المكانة العليا في جنة تجري من تحتها الأنهار، والذي يقرر ذلك هو الكيفية التي يوجه بها كسب المال والتصرف فيه.

ثالثاً - التصرف في المال المكتسب

ومال الإنسان مما اكتسبت يداه - إذاً - هو الذي يصل المتصرِّف فيه إلى طريق الرشاد أو طريق الضلال . إن الإنسان وحده هو الذي عليه أن يختار بتفكيره وإرادته هذه

الطريق أو تلك. ومن خلال هذا الاختيار يُطرح سؤال مهم: أيكون المال نعمة أم نقمة؟! والجواب مؤجل نتعرفه من خلال بعض الآيات الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة التي ترشدنا إليه.

1 - أما أن يكون نعمة فالطريق إلى ذلك ما ينفقه العبد في سبيل الله امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾ [البقرة: 177].

أردت جازماً أن آتي بالآية التي ذكر فيها المال على طولها؛ لأن المال فيها مسبوق وملحوق بكلام الله - عز وجل - ولا يمكن النظر فيه بعيداً عما قبله وما بعده. ففي كلام الله السابق عليه دار كلامه تعالى حول البر في حالتيه: الرفض ، والقبول: أما الرفض فمادي هلامي لا يضبطه إيمان يوجهه وجهة سليمة. إنه تائه بين المشرق والمغرب: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾. أما القبول فأعمال صائبة يضبطها الإيمان بالله أولاً وقبل كل شيء؛ والإيمان بالله يستوجب الإيمان بما قرر سبحانه وقدر: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾. فهذه علامات الإيمان الكبرى لا ينفصل بعضها عن بعض. إنها منضبطة ومتسلسلة ومحكومة بإرادة الله تعالى والإيمان به إيماناً صادقاً لا ينحرف صاحبه شرقاً ولا غرباً ؛ فوجهته محددة يتبعها المؤمنون جميعاً.

وهنا في هذا المقام يأتي ذكر المال مرتبطاً بهذه العلامات الإيمانية ومنتظماً انتظامها بالإيمان الصادق المخلص لله تعالى. ومن الطبيعي أن يسلك صاحب هذا المال مسالك المؤمنين العابدين لله الطائعين لأوامره في تصريف هذا المال: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ﴾. فالآية تقر مرة أخرى بحب الإنسان للمال؛ لكن من يعمر الإيمان قلبه يعلم أن المسلمين كما وصفهم رسول الله ﷺ: « مثل الجسد الواحد يشد بعضه بعضاً»، وهذا يستوجب العون فيما بينهم. وليس أقرب إلى ذلك العون ممن حباه الله مالاً أن يصَّدَّق على مستحقيه ممن ذكرهم الله في الآية الكريمة. و في سورة النور: ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ [النور: 33]. فالمال هو

مال الله وعلى الإنسان الموكل به أن يخرج منه على المحتاجين إليه من إخوانه المؤمنين، وقد بينهم الله تعالى في آيات كثيرة . كما بين تعالى أوجه الإنفاق كالزكاة والصدقة وغيرهما، فهي كلها تيسر لمن يسلكها طريقاً إلى الجنة.

ولا تخرج الآيات التي اختصت بالمال عنها وعما سبقها؛ لأنها آيات تظهر سلوك الخير المقترن بالإيمان : « مقيمو الصلاة، ومؤدو الزكاة ، والموفون بعهدهم ، والصابرون في البأساء والضراء»، ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾. فالمؤمنون بالله يؤتون من مالهم – على حبهم إياه – صدقات لمن بين الله أنهم بحاجة إليه. إنهم مع الذين أعدت لهم مقاعد صدق عند مليك مقتدر.

وهناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تنحو بالمال هذا النحو. منها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾﴾ [البقرة: 262] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ [التوبة:111].

2 – وأما أن يكون المال نقمة فالآيات في ذلك كثيرة ، بل ربما أكثر عدداً من آيات النعمة. ومن هذه الآيات قوله تعالى على لسان المشركين: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ [سبأ:35] فيرد عليهم بقوله تعالى: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [سبأ: 37, 38].

هذه آيات ثلاث متكاملة في الفهم الإنساني لامتلاك المال وسلوكه في تصريفه، والعواقب المنتظرة لذلك السلوك في الآخرة. وطبيعي أن يكون الجزاء من جنس العمل؛ فالذين ينفقون المال بدافع الإيمان جزاؤهم معروف ومقرر وقد وقفنا عليه سابقاً، وهو مؤيد هنا بأوصاف تماثل تلك الموصوفة هناك: ﴿لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ أما أولئك النفر المخالف فيظنون أن كثرة المال والبنين تمنحهم القوة ليبغوا ويسلكوا مسالك ضالة فاسقة فاسدة معتقدين أن أحداً لن يقدر على تعذيبهم على أفعالهم، كما يستدل من ادعائهم في الآية، لكن الرد الإلهي جاء صادماً لهم في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ﴾. فإذا كنتم تظنون أن الكثرة في أموالكم وأولادكم تقربكم من الله

وتمنع عنكم عذابه فأنتم واهمون. إنها ليست شيئاً عنده – عز وجل – ما دامت غير محفوفة بالإيمان. بل إن صدمتهم أكبر حين يعلمون أن الله أعد لهم عذاب معاجزيه سبحانه. لقد استمروا في عنادهم وفي المباعدة بين ما يعتقدون والعقل السوي السليم. لأجل هذا لم يعد مجدياً أن يناقشوا في الأمر. وليس لهم في الآخرة إلا أن يعاقبوا بما يستحقون ، فهم «في العذاب محضرون» وهو المصير المنتظر لكل معاند كافر.

3 – ذانك مثالان أبرزا امتلاك المال والتصرف فيه. وهذا التصرف يؤول بالمال إلى حال من النعمة في ناحية، وإلى حال من النقمة في ناحية مضادة. لكن ذلك لم يكن محصوراً في الشواهد المقروءة فقط، وليس في النموذجين السابقين فحسب، وإنما هو قائم ومقسم على الناحيتين المتعاكستين في نماذج أخرى. ولأن القرآن الكريم حريص على ترسيخ ذلك بكل وسيلة فقد جمع بين الحالتين في صورتين متضادتين مؤثرتين لباذل المال كما يلي:

أما الصورة الأولى فتجسيد لحالة المال السائر بباذله إلى الخسران. يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾ [البقرة: 264].

وأما الصورة الثانية فتجسيد لحالة المال السائر بباذله إلى الفوز في الدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ كَمَثَلِ جَنَّةِۭ بِرَبۡوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٞ فَـَٔاتَتۡ أُكُلَهَا ضِعۡفَيۡنِ فَإِن لَّمۡ يُصِبۡهَا وَابِلٞ فَطَلّٞۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٢٦٥﴾ [البقرة: 265].

الصورتان متناقضتان في الناتج؛ فواحدة إلى بوار ، وأخرى إلى ثمار ، مع أن الفاعل هنا وهناك واحد وهو الوابل من المطر الذي يحيي الحياة لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنَ ٱلۡمَآءِ كُلَّ شَيۡءٍ حَيٍّۖ ٣٠﴾ [الأنبياء: 30]، لكن المنبت هو المختلف فالصخر ينزاح عنه التراب بالماء الماطر بعكس الربوة الحاضنة للماء القادم إليها من السماء. فالصورتان محكمتان بواقع الإنسان؛ فالكافر قلبه كالصخر لايعلق فيه الإيمان الضابط للإنفاق والموجه للخير. أما المؤمن فهو الممتلئ قلبه إيماناً كالربوة الحاضنة للماء وهما معاً (الربوة والقلب) مَصْدَرٌ للخير

ومُصَدِّرٌ له إلى حيث أراد الله. وبناء على هذه النتيجة للعملين المتناقضين ينتظرهما جزاءان متخالفان: الجنة للمتقين، والنار للكافرين.

4 - هناك حرص من الله - تعالى - على أن يتصرف المسلمون بالمال الذي يسره الله لهم تصريفاً عادلاً؛ لذلك أمرهم أوامر ونهاهم نواهي واجبة النفاذ، من أهمها:

أ- في المال حق للآخرين المحرومين منه : ﴿وَٱلَّذِينَ فِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ مَّعۡلُومٞ ٢٤ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ٢٥﴾ [المعارج:24 - 25] ومن هنا فرضت الزكاة لقوله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ [التوبة: 103] وقوله :﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ كَٰفِرُونَ ٧﴾ [فصلت:7]. وإنفاق المال في سبيل الله يوصل منفقه إلى الجزاء الأوفى:﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٤﴾ [البقرة:274].

ب- حفظ مال اليتامى وعدم المساس به: قال تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ [الإسراء: 34].

ج - أن يكون كسب المال بالحلال لا بالباطل: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٨﴾ [البقرة: 188].

د- تحريم التداول بالربا : ﴿يَمۡحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرۡبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾ [البقرة: 276].

هـ- للمرأة حق في الكسب مساو لحق الرجل. قال تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٞ مِّمَّا ٱكۡتَسَبۡنَۚ﴾ [النساء:32].

و- حبب الله الإنفاق وكافأ عليه، وأمر أن يكون الإنفاق من حر الكسب وطيبه لا من خبيثه. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ وَمِمَّآ أَخۡرَجۡنَا لَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 267].

ز- وتقتضي إرادة الله أن يتم التداول بين الناس جميعاً: ﴿كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم﴾ [الحشر:79] كما أمر أن لا يبغي بعضهم فيه على بعض: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ ٢٩﴾ [النساء: 29].

ح- والاقتصاد السليم يقوم على توزيع المكاسب بالعدل والمساواة وحق العمل والكسب المشروع وعدم الاحتكار، لقول الرسول - عليه السلام - «لا يحتكر إلا خاطئ»؛ أي آثم (أخرجه أحمد ومسلم وآخرون. الزحيلي، ص 198).

ط- إلزام المالك باستثمار ملكه وإلا نزعت منه حفزاً للعمل الجاد المثمر. لقول عمر: «ليس لمحتجر حق فوق ثلاث سنوات» (الزحيلي، ص198).

ي- للمرأة في الإسلام ذمة مالية مستقلة عن زوجها وأهلها ، ولها حرية التصرف في أموالها سواء في التجارة أم البيع والشراء ما دامت رشيدة لقوله تعالى: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ﴿٢٢٨﴾﴾ [البقرة: 228]، ذلك أن الإسلام ساوى في الإنسانية بين الرجل والمرأة فخلقهما من نفس واحدة حيث قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴿١﴾﴾ [النساء:1] وقد جاء في الحديث : «إنما النساء شقائق الرجال». انظر (متفق عليه بين البخاري ومسلم عن أبي هريرة (انظر الزحيلي، ص258-259).

الخاتمة

تبين من المناقشة السابقة أن الحرية في الإسلام مكفولة للأفراد والجماعات؛ لأنها مقترنة بحقوق الإنسان وبالكرامة الإنسانية التي كفلها الإسلام بنص قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ﴾. لكن هذه الحرية، وتلك الحقوق، ليستا مطلقتين وإنما مقيدتان بحقوق الآخرين وحرياتهم أيضاً ؛ ولهذا نشأت الدولة الإسلامية القائمة على العدل والمساواة بين الناس في ظل القوانين والتشريعات التي أقرها الله تعالى في كتابه العزيز، وصدقها الحديث النبوي الشريف وطبقها الخلف الصالح بأمانة وإخلاص ضمن إجراءات ومواقف وآراء لا تخرج عن تلك المبادئ المنصوص عليها في الكتاب والسنة.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- إبراهيم، زكريا: **مشكلة الحرية** ، ط3، القاهرة: مكتبة مصر، 1971.

- الزحيلي، وهبة: **حق الحريات في العالم**، دار الفكر، دمشق: دار الفكر المعاصر، بيروت، 2000م
- السيوطي، أبو الفضل جلال الدين: **الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير**، بيروت: دار الفكر، 1981
- عثمان، محمد فتحي : **حقوق الإنسان بين الشريعة الإسلامية والفكر القانوني الغربي**، بيروت – القاهرة: دار الشروق، 1982 م.
- الغزوي، محمد : **الحريات العامة في الإسلام**، الإسكندرية: نشر بدعم من الجامعة الأردنية، مؤسسة شباب الجامعة ، د . ت.
- الكحلوت، عبد العزيز: **الإسلام ثورة مستمرة** : ليبيا، كتاب الشعب 1981 م .

مجلة العلوم الاجتماعية

فصلية – أكاديمية – محكّمة

تصدر عن مجلس النشر العلمي – جامعة الكويت

تعنى بنشر الأبحاث والدراسات في تخصصات السياسة والاقتصاد والاجتماع والخدمة الاجتماعية وعلم النفس والأنثروبولوجيا الاجتماعية والجغرافيا وعلوم المكتبات والمعلومات

رئيس التحرير: هادي مختار أشكناني

تفتح أبوابها أمام

- أوسع مشاركة للباحثين العرب في مجال العلوم الاجتماعية لنشر البحوث الأصيلة والاسهام في معالجة قضايا مجتمعاتهم
- التفاعل الحي مع القارئ المثقف والمهتم بالقضايا المطروحة.
- المقابلات والمناقشات الجادة ومراجعات الكتب والتقارير.
- تؤكد المجلة إلتزامها بالوفاء والانتظام بوصولها في مواعيدها المحددة إلى جميع قرائها ومشتركيها.

توجه جميع المراسلات إلى:

رئيس تحرير مجلة العلوم الاجتماعية

جامعة الكويت

ص.ب 27780 الصفاة، 13055- الكويت

تليفون: 00965-4810436

فاكس 4836026

E-mail:JSS@kuc01.kuniv.edu.kw

الاشتراكات

الكويت والدول العربية		الدول الأجنبية	
أفراد	3 دنانير سنوياً ويضاف إليها دينار واحد في الدول العربية	أفراد	15 دولاراً
مؤسسات	15 ديناراً في السنة 25 ديناراً لمدة سنتين	مؤسسات	60 دولاراً في السنة 110 دولارات لسنتين

تدفع اشتراكات الأفراد مقدماً نقداً أو بشيك باسم المجلة مسحوباً على أحد المصارف الكويتية ويرسل على عنوان المجلة، أو بتحويل مصرفي لحساب مجلة العلوم الاجتماعية رقم 07101685 لدى بنك الخليج في الكويت (فرع العديلية).

Visit our web site: http://pubcouncil.kuniv.edu.kw/jss